

**مفهوم التنمية المحلية "المستدامة" ومدى أهمية "العامل الانساني" في النموذج الاسلامي
المعاصر : قراءة في بعض طروحات المفكر بن نبي**

**The concept of "sustainable" local development and the
"importance of the "human factor
In the Contemporary Islamic Model: A Reading in Some Theses
of the Thinker Malik Bennabi**

أ.د / مرزوقي بدرالدين

تخصص سوسيولوجية التنمية

كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإسلامية ، جامعة وهران 1.

merzouguibadr.31000@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/01/12	تاريخ القبول: 2021/03/18	تاريخ النشر: جويلية 2022
الملخص: في الواقع، لا يزال من الكثير المهتمين بسوسيولوجية التنمية الحديثة ينتجون أطروحات يثبتون فيها أن الكائن الإنساني هو العنصر الأساسي في عملية التغيير الاجتماعي، إنهم يعتبرونه وسيلة وغاية التنمية في الوقت ذاته. أما في منظور المفكر بن نبي، فإن العوامل الأساسية التي تستند عليها حضارة (الإنسان، التراب و الوقت) و بتدخل من فكرة دينية كشرارة، تتحول إلى عوامل إنتاجية، حيث يضاف إلى هذه العوامل "الموضوعية" عامل "ذاتي" ذو طبيعة سيكولوجية، فكرية سيلعب دور المبدأ المنشط، ومن ثم لن يعود الرأسمال شرارة التنمية بل الفكرة، هكذا تنصهر التنمية الاقتصادية - حسب المفكر بن نبي- في نظرية للحضارة و عندها، يصبح التعريف الذي يقدمه هذا المفكر للتخلف أو للتنمية ليس اقتصاديا بل سيكولوجيا و سوسيولوجيا بوجه أخص.		

الكلمات المفتاحية: سوسيولوجية التنمية، العامل الإنساني، إرادة حضارية، تنمية محلية، إنسانية إيكولوجية، تنمية مستدامة.

Le résumé :

En réalité, la plupart des spécialistes en sociologie du développement contemporain ne cessent de développer des thèses démontrant que l'être humain est l'élément fondamental dans les processus du changement social. En effet, il est considéré selon eux comme étant le moyen et la finalité de tout développement. Pour le penseur bennabi, les facteurs fondamentaux sur lesquels repose une civilisation, (l'homme, le sol et le temps) et par l'intervention d'une idée religieuse comme catalyseur, sont convertis en facteurs de production. A ces facteurs "objectif", s'ajoute un facteur "subjectif" de nature psychologique, idéale, qui va jouer le rôle de principe actif. En effet, le catalyseur n'est pas le capital, mais l'idée. Ainsi, Le développement économique est fondu dans une théorie de la civilisation. Dès lors, la définition que donne l'érudit penseur Bennabi au sous-développement ou au développement n'est plus économique, mais surtout psychologique et sociologique.

Les mots clés : Sociologie du développement ; Facteur humain ; Volonté civilisationnelle ; Développement local ; Humanisme écologique ; Développement durable.

مقدمة

لا ريب أن الحديث عن التنمية الاقتصادية والاجتماعية هو في الواقع عملية استقراء لحركة المجتمعات الإنسانية في تكيفها البيئي، التدريجي والمتفاوت عبر الصيرورة التاريخية لكل مجتمع . لقد كان (ولازال) الهدف من وراء عمليات تكيفها المعقدة

يتمثل في ذلك البحث الدؤوب عن آليات أو بدائل أصيلة ومبدعة من أجل تكيف أفضل مع عالم الافكار، عالم الأشخاص وعالم الاشياء، وهذا بفضل ما أودعه الخالق في الإنسان (كل إنسان) من إستعدادات بهدف التكيف و المقاومة، الأصيلة و المبدع. لا شك أن الإنسان (كل إنسان) وراء خصائصه الحيوية التي يتقاسمها مع الكائنات الحية، وراء إستعداداته الفريدة والمعقدة التي تجمعها مع بني جنسه تصورات ودوافع وقيم حضارية متفاوتة من حيث مرجعيتها الثقافية أو الإيديولوجية سواء أكانت داخل مجاله الحيوي أو خارجه.

في هذا السياق المعرفي، يتضح ما مدى أهمية وحيوية البعد السيكلولوجي والسوسيولوجي في إطار خصائص حضارة معينة، خاصة عندما تتعلق مسألة التنمية المحلية "المستدامة" بالإرادة (Le vouloir) والإمكان (Le pouvoir) الحضاريين، في طريقة تعاملهما مع مختلف التحديات سواء من حيث التشخيص أو من حيث صياغة وتطبيق الحلول المناسبة مادية كانت أم معنوية.

سنتناول في هذه الورقة البحثية بعض أهم طروحات المفكر بن نبي التنموية سواء في بعدها المحلي أو الوطني (الحضاري) والتي تتمحور حول ثلاثة مقومات أساسية هي : "الإنسان" بإعتباره كائنا مستخلفا(بالفتح)، "التراب"، مع كامل مشروطيته الجغرافية، الفنية والقانونية، المتعلقة بعلم العمران البشري، و"الزمن"، المشروط سوسيولوجيا بالنتيجة.

لقد أولى بن نبي الإنسان عناية قصوى جعلت من هذا المفهوم (العامل الإنساني) بعدا ثقافيا وحضاريا إشرافيا للعنصرين الآخرين (التراب والوقت) في إطار تدخل خارجي لفكرة دينية سماوية كباعث مغل، فالحضارة عند هذا المفكر هي التي تشكل هذه القدرة وهذه الإرادة اللتين لا تقبلان الانفصال عن وظيفة المجتمع النامي، داخل المجال الحيوي الخاصة به، سواء في إشعاعه الثقافي والإقتصادي أو حتى في توسعه السياسي والعسكري كذلك.

المبحث الأول: "العامل الإنساني" بين الإرادة والإمكان الحضاريين:

إن المشاكل الإنسانية التنموية / البيئية تختلف من حيث القوة والدرجة باختلاف المكان والزمان، فمثلا نجد أن مختلف المجتمعات الأوروبية المعاصرة تعاني وبدرجات

متفاوتة الخطورة من مشاكل ذات طبيعة ونوعية خاصة، نتجت أساسا عن عدم الموازنة بين الجانب المادي المتمثل في حركة التصنيع، المتسارعة الإيقاع كما وكيفا، والجانب الروحي نتيجة إضعاف "الاقتصاد المتوحش" لدور الحركات الدينية الإصلاحية وعلى رأسها المذهب البروتستانتي (الأخلاق الكالفينية)¹. إن المسألة في رأينا تتعلق جوهريا في إشكالية إيجاد صيغ إنسانية أكثر إيجابية من أجل خلق توازن أكبر بين الجانب المادي و الجانب الروحي في الكائن الإنساني. بعبارة أخرى نقول، إن المسألة تكمن أساسا في البحث عن فعالية أكثر إيكولوجية (*une efficacité plus écologique*)، أي الدعوة إلى تبني أو تأصيل إنسانية إيكولوجية حقيقية (*Un véritable humanisme écologique*) على مستوى الاقتصاد والاجتماع و التنمية المتكاملة المستدامة². أما في العالم الإسلامي فإن معظم المشاكل هي ذات طبيعة أخرى، حيث يذهب المفكر بن نبي إلى أن أزمة الإنسان المسلم المنتمي إلى هذه البلدان تتمثل في ظاهرة الركود والعزوف عن الحركة الديناميكية، والتخلي عن السير قدما في ركب التاريخ الحضاري كأعراض مرض متفشي في معظم الفئات الاجتماعية و الثقافية و الدينية، وما نتج عن هذه الوضعية النفسية- الاجتماعية (السلبية) من صور مشوهة لكائن يكاد يكون مشلول الفكر والحركة، معزول عن الجماعة، بحكم أن هذه الأخيرة قد وضعت نفسها على هامش التاريخ (الحضارة) نتيجة "معامل القابلية للاستيطان" (*Le coefficient de colonisabilité*) ومن ثم، أصبحت شبكة العلاقات الاجتماعية مفككة الأوصال أكثر فأكثر بفعل "معامل الاستيطان" (*Le coefficient colonial*) كعامل جغرافي سياسي عسكري مضاعف.

¹ - للاستزادة حول الدور النشط للبروتستانتين، خاصة الكالفنيين منهم في تاريخ التصنيع و التنمية الاقتصادية في الغرب، راجع على سبيل المثال الدراسة الكلاسيكية الشهيرة للعلامة الألماني ماكس فيبر مع بعض أبرز النقاشات حول مدى تأثير العامل الديني في المجتمعات الغربية الحديثة والمعاصرة:

Weber Max, L'Ethique protestante et l'esprit du capitalisme, tra. J. Chavy, Eds. Plon, Paris, 1964. Cité in: Rocher Guy, Introduction à la sociologie générale : le changement sociale, coll. Points, Eds. HMH, Ltée, t.3., Paris, 1968, pp70- 86.

² - بن نبي مالك، دور المسلم ورسائله في الثلث الأخير من القرن العشرين، ص ص 70-81. انظر أيضا: بن نبي مالك، آفاق جزائرية: للحضارة، للثقافة، للمفاهيمية، ترجمة الطيب شريف، مكتبة النهضة، الجزائر، ب. ت، ص ص 103-108. - Voir par exemple sur ce sujet, l'excellente approche de : Saint Marc Philippe, L'économie barbare, Eds. Frison-Roche, Paris, 1994. Pour l'Algérie, Eds. O.P.U., Alger, 1995, pp 453-478.

لقد أسهم هذا المناخ الإيديولوجي المتعفن أكثر في تعقيد وضعية معظم الأفراد والجماعات الاجتماعية في العالم العربي والإسلامي ومنها الجزائر على سبيل المثال لا الحصر، جاعلا منهم، أفرادا أو جماعات، مجرد "أجهزة إرسال- استقبال"، تتحكم فيها بعض أجهزة الاستخبارات الأجنبية (مختبرات التلاعب بالعقول) و هذا بعد أن وضعت فيها "دوافع جديدة"، مشروطة وبدرجات متفاوتة الخطورة طبقا لأهدافها الجيو استراتيجية، الجيو- سياسية والجيو- اقتصادية في إطار العولمة.³

إذن، يتصل الأمر جوهريا فيما يتعلق بالتحديات التي يواجهها كل من الغرب والعالم الإسلامي بذهنيتين مختلفتين إزاء مشكلتين متنوعتين كما وكيفا، فإذا كانوا هناك (في الغرب) يحتاجون بطبيعة الحال إلى "توازن مؤسساتي" يعود في بعض معطياته المنهجية والإيديولوجية إلى مراجعة أساليب التخطيط و التحليل الاستراتيجي على مستوى حدود فعاليتها الزمكانية، وهذا انطلاقا من المراجعة النقدية لبعض المسلمات التقليدية في علم التخطيط الاستراتيجي و التنمية الصناعية، من أجل المزيد من الفعالية على كل مستويات الإنتاج والاتصال (المعقدة)⁴. قلنا إذا كان الأمر كذلك في الغرب، فإن العالم الإسلامي لازال في حاجة ماسة إلى تكوين وتخريج نخب وطنية، أصيلة و مبدعة، ذات كفاءات عالية في علم التخطيط الاستراتيجي الشامل، ولا يمكن تحقيق ثمار هذا المشروع الحضاري الأصل في منطلقاته و المبدع في وسائله و أهدافه - حسب بن نبي- إلا إذا كان هناك متخصصون وطنيون "حضاريون"، يعكفون على دراسة تاريخ الأمم و الشعوب دراسة تحليلية مقارنة (نقدية بناءة)، من أجل استخلاص الدروس و العبر الحضارية (السنن التاريخية) في المكان وفي الزمان ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. "يجب أولا أن نضع رجالا ونساء "حضاريين" يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت و المواهب في بناء أهدافهم الكبرى... فقد صار من اللازم أن نضع أمامنا المشكلة بأكملها، وأن نأخذ في

3 - للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع:

Cf. Domenach Jean-Marie, Le sauvagement et l'ordinateur, Eds. du seuil, Paris, 1976, pp. 47-73.

4 - للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع المعقد أنظر

Cf. Mintzberg Henry, Grandeur et décadence de la planification stratégique, traduit de l'américain par Pierre Romelaer, Eds. Dunod, Paris, 1994, pp. 231-328.

اعتبارنا -على الأخص- عنصرها الأساسي: الرجل [والمرأة]، ويلزمنا أولا أن نفهم كيف يؤثر الإنسان في تركيب التاريخ نكون قد درسنا قانونه واستخلصنا عبره.⁵

من هذا المنطلق الحضاري، يعتقد المفكر بن نبي أن القراءة التحليلية النقدية المتأنية لعلاقة الجدلية بين منظومة الأفكار وسلوكيات الأشخاص تكشف على أن الفرد يؤثر في مجتمعه بثلاث مؤثرات هي:

أ- بفكره: ضرورة توجيه الثقافة.

ب- بعمله: ضرورة توجيه العمل من أجل اكتساب أسباب القوة المادية و المعنوية عن طريق الاقتصاد في الجهد و الوقت مع التوافق الجماعي في الحركة التاريخية الهادفة.

ج- بماله: ضرورة توجيه رأس المال.

يؤكد بن نبي أن التكامل في التوجيه الفعال للموارد المادية و البشرية هو الذي يسمح باجتياز عتبة التخلف و الدخول إلى عالم الحضارة من بابها الواسع. المهم في كل هذا "هو أن ندير هذا الجهاز الضخم (المعقد) المكون من ملايين السواعد و العقول في أحسن ظروفه الزمنية و الإنتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائه، وحين يشرع هذا الجهاز في الحركة التكاملية في إطار تركيبته الحضارية فسيؤثر حتما في مجرى الأحداث التاريخية، خاصة عندما يكون قد حدد سيره نحو الهدف المنشود .."⁶

لن نتحدث في السطور التالية عن توجيه الثقافة بل ستركز تدخلنا حول فكرة توجيه العمل وتوجيه رأس المال في الواقع الاجتماعي من المنظور البنابي بطبيعة الحال.

المبحث الثاني: توجيه العمل بين الحق القانوني و الواجب الشرعي:

إن توجيه العمل هو حلقة جديدة تتولد من جدلية الإنسان / البيئة، فبالرغم من أن العمل ليس عنصرا أساسيا كالإنسان و التراب و الزمن إلا أنه يتولد حتما من تفاعل هذه

5 - بن نبي مالك، شروط النهضة، سلسلة مشكلات الحضارة، ترجمة عمر كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهين، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، 1979، ص ص 75-77.

6 - بن نبي مالك، المصدر نفسه ، ص 78.

العناصر الثلاثة كما وكيفا، فهو (العمل) و حده الذي يسمح للإنسان بأن يأمن البيئة (de Une véritable humanisation l'environnement) في إطارها الاجتماعي الاقتصادي، فعن طريق أنسنة الموارد البشرية⁷، ، يغير هذا الكائن الإنساني من ملامح البيئة ومن شكل تضاريسها، ويتغير معها في الوقت ذاته نحو آفاق جديدة من العطاء الانساني المتبادل.

لا ريب أن الشيء الذي يهم أي "مجتمع تاريخي" في طور البناء هو "البعد التربوي" (الإيمان و العمل الصالح) في مختلف أوجه نشاطاته الفردية أو الجماعية بالدرجة الأولى وليس البعد المادي (الناحية الكسبية) فمثلا، ما هو الكسب الذي ينتظره الصينيون من وراء تطوعهم الجماعي من أجل إنجاز المشاريع الكبرى؟ و ما هو الكسب المادي الذي ينتظره المسلمون الأوائل من وراء تطوعهم الفردي والجماعي من أجل إنجاز بعض الأعمال أو التكاليف؟. إن الناحية الكسبية (انتظار أجر مقابل عمل مؤدى) لا تظهر - حسب العديد من الملاحظين الاجتماعيين- إلا في مرحلة يكون فيها هذا المجتمع أو ذاك، قد أحس أفراد وجماعاته أنهم في تطور فعلي (مرحلة الحق مقابل الواجب)، يقتضي استحقاق أجر مادي عن كل جهد مبذول في إطار التقسيم التقليدي والجنسي للعمل. أما في المجتمع الناشئ، فتفقد كلمة أجر مادي معناها الطبيعي لأن العامل في هذه المرحلة (مرحلة جهاد البناء والتشييد) لا علاقة له "بصاحب عمله"، بل علاقته تتمفصل عبر وجوده وتفاعله الإنساني الروحي في جماعة أو عشيرة أو عائلة، يقاسمها مشاكلها اليومية بصفة مباشرة أو غير مباشرة. "...إن توجيه العمل إذن في مرحلة التكوين الاجتماعي بشكل عام، يعني أساسا، سير الجهود الفردية و الجماعية في اتجاه واحد، على اختلاف انتماءاتها الجغرافية والسوسيو- اقتصادية و العلمية. إن تعليم الحروف الأبجدية في إطار سياسة محو الأمية عمل، و الاجتهاد في تعليم هذه الحروف عمل، وإمالة الأذى عن الطريق عمل، وإسداء النصيح عن التنظيف والتجميل و الزخرفة بالحكمة و الموعدة الحسنة عمل، وغرس شجرة أو المشاركة في حصد محصول زراعي عمل، واستغلال أوقات فراغا في مساعدة

⁷ - Ginsberg Eli, Pour une économie humaniste, traduit de l'américain par Guy Chartier, Coll : Tendances Actuelles (71), Eds. Les presses du Régionales Services Center, Manille, Philippines, 1979, pp313-357.

الآخرين عمل، وهكذا دواليك..."⁸ ، فبقدر ما نعطي ونؤثر على أنفسنا دون مقابل فنحن في إطار عمل أخلاقي، يساهم يوميا و بصفة مباشرة أو غير مباشرة في إعادة إنتاج قوة التماسك الاجتماعي على المستوى الاقتصادي - الاجتماعي. إذن طالما نحن نعمل ننتج المال الذي يضمن كسب لقمة العيش لكل فرد، وهذا يقودنا منطقيا إلى الحديث عن مسألة توجيه رأس المال و دوره الحضاري في إعادة إنتاج الكرامة والرفاهية كقيمة أخلاقية واجتماعية بامتياز.

المبحث الثالث: توجيه رأس المال بين الاستقلالية السياسية و التبعية

الاقتصادية:

إن المشكلات السياسية التي كانت تعاني منها المجتمعات الأوروبية في مطلع القرن التاسع عشر على المستوى الاقتصادي- الاجتماعي نتيجة تراكم رأس المال، في أيدي أقلية رأسمالية لم تكن تهم آنذاك العالم الإسلامي لأن الظروف السياسية و الاجتماعية- الاقتصادية المغايرة كما وكيفا لم تكن تسمح بمثل ذلك التراكم الكمي و الكيفي للثروة (الرأسمال) الحاصل في بلدان الأوروبية، وعليه تصبح قضية تحديد مفهوم رأس المال وتوجيهه، تملي علينا بطبيعة الحال تعاملنا خاصا في عملية التحديد والتوجيه ذاتها، وهذا من منطلق أن رأس المال (الثروة)، آلة اجتماعية يقوم عليها التقدم المادي، وليست آلة سياسية تحركها فئة رأسمالية، هذه الفئة التي وقفت منها المدرسة الماركسية موقفا نقديا في منطلقاتها وأهدافها الاقتصادية- الاجتماعية (الأخلاقية) منذ القرن التاسع عشر الميلادي. ينبغي أن نفهم في هذا الإطار الاقتصادي- السياسي المتباين، أن كلمة رأس المال أجنبية عن قاموسنا الاجتماعي، وهي تتميز عن كلمة ثروة التي تعودنا على تداولها في مجتمعاتنا التقليدية.

8 - بن نبي مالك: المصدر نفسه، ص 107. للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع: ص ص 106- 108.

في الواقع، تتعلق الثروة بالمركز الاجتماعي الذي يحتله صاحبه وباستخدام هذا الأخير لها، فهو في هذه الحالة قد يكون فلاحا، راعي غنم، صاحب مزرعة، حرفيا، وفي هذه الحالة لا علاقة للثروة بطبيعة الحال بالدورة الاقتصادية كالاستثمار الصناعي والتكنولوجي و الإنتاج بهدف التصدير و الاستيراد للسلع و البضائع المختلفة، والبحث عن الأسواق وغيرها من المعاملات التجارية المعروفة في الميادين الاقتصادية المختلفة كما هو الشأن في الرأسمال، " فالثروة بهذا المفهوم تلقب بلقب صاحبها، في حين أن رأس المال ينفصل اسما عن صاحبه، ويصبح قوة مالية مجردة.⁹ وبشيء من التوضيح نقول، بأن "الثروة" شيء يستعمله الفرد في دائرته الخاصة لسد حاجاته المحدودة بيد أن "الرأس المال" يعبر عن ذلك المال المتحرك الذي يتعدى الميادين الخاصة، المحدودة ليشمل حقولا اقتصادية وتجارية أوسع، وأعم فائدة بأن يخلق في حركته الاستثمارية هذه، مفهوما اجتماعيا- سياسيا يسمى بالرأسمالية، علما بأن هذه الظاهرة التي حولت الثروة من حالتها البسيطة (الراكدة) إلى حالة واسعة النطاق عرفت بـ"الرأسمال المتحرك"، لم تعرف رأس المال من حيث الكم، وإنما عرفته من حيث الكيف أو الحالة، أي من حيث الحركة الداخلية و الخارجية على المستوى الإقليمي أو العالمي.

أما في بلاد إسلامية كبلادنا، فإن توجيه رأس المال (وهو لايزال في بداياته) يجب أن نربطه بالكيف لا بالكم، أي يجب أن نجعل من كل قطعة مالية حركة ديناميكية تخلق النشاط و العمل الشريف، فالمسألة لا تتعلق أساسا بتكديس ثروة، لأن هذه الطريقة من شأنها أن تستبقي المال في حالة من الركود و الجمود، بل يجب أن يوجه المال توجيهها اجتماعيا يبعث الحياة الشريفة من جديد على مستوى النشاط الفكري و الاجتماعي في بلادنا.

في هذا الإطار السياسي الاقتصادي يرى بن نبي ضرورة تشجيع الجهود الوطنية المخلصة في انتمائها الحضاري والتي تعمل باستمرار على توجيه المال، توجيهها عقلانيا قدر المستطاع، من أجل تقليص الفروق الاجتماعية وتغليب المصلحة العامة على المصلحة

و- بن نبي مالك: المصدر نفسه، ص 110. انظر أيضا في نفس السياق المقاربة القيمة للباحث : بكار عبد الكريم، مدخل إلى التنمية المتكاملة: رؤية إسلامية، سلسلة المسلمون بين التحدي و المواجهة (4)، دار القلم، ط. الأولى، دمشق، 1999، صص 306-346.

الخاصة، إيماناً منها بأنه يمكن أن نستفيد إيجابياً من التجربة الغربية في ظل قراءة نقدية للمشكلات الاجتماعية-الاقتصادية الناجمة عن حركة التصنيع في الشرق و الغرب، كما يجب التنويه بتلك الجهود السياسية - الاقتصادية (الوطنية) المتواصلة في بعض البلدان الأفريقية و الآسيوية و التي أثبتت للجميع، بفضل التخطيط العلمي الاستراتيجي الوطني أنه بالإمكان تكوين رؤوس أموال حتى وإن كان البلد "فقيراً" كما هو حال دولة البنغلاديش (تجربة بنك الفقراء النموذجي بإشراف الخبير المسلم محمد يونس) أو ماليزيا (بقيادة الدكتور مهاتير محمد في مجال التنمية الاجتماعية) أو سريلانكا مثلاً، حيث كان المقصود من "الاعتماد على الذات" في مثل هذه البلدان الآسيوية التقليل من الاعتماد على الدول الأجنبية وحفظ الرأسمال الوطني من التسرب إلى الدول الصناعية، و إنقاد أكبر عدد من الناس من براثن العوز والحاجة و الأمية وذلك باعتماد سياسة تنمية محلية و وطنية "مستدامة"، عبر تعزيز عمليات بقاء الفلاحين والمزارعين و الحرفيين في قراهم، حيث تعتمد الحكومة على أسلوب فتح باب المبادرات الشعبية وتنظيماتها التقليدية ومن ثم اختيار ودعم أكثر المشروعات العائلية (الصغيرة والمتوسطة) المقترحة قدرة على تحقيق أكبر قدر ممكن من الاستفادة من الموارد المحلية المتاحة، وإيجاد أكبر عدد من الوظائف بأقل مبلغ من المال ومن أكثر برامج التصنيع والتنمية الريفية كفاءة للفقراء " شبكة مجالس تطوير الأحياء" (الفقيرة) التي غطت البلاد كلها عام 1972 وعرفت نجاحات معتبرة ذاع صيتها خارج سريلانكا.¹⁰

بناء على هذه الرؤية المنهجية يذهب المفكر بن نبي وبإلحاح إلى ضرورة تكوين مجلس علمي وطني نو فروع متخصصة للمراقبة و المحاسبة يسهر على " التوجيه الأخلاقي" الصارم للثروة الوطنية، و توظيفها توظيفا عادلاً، يتوفر فيه إسهام السواد الأعظم من الشعب، مهما كان هذا الشعب فقيراً، بحيث لا يحول دون تركيز رؤوس الأموال في أيدي فئة قليلة، همها الوحيد الاستغلال و الاحتكار المادي و المعنوي (السلبى) في

¹⁰ - انظر على سبيل المثال الدراسة الميدانية للخبير الأمريكي بول هاريسون ، العالم الثالث غدا ، ترجمة مصطفى عبد الرازق، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ، 1992، ص ص147. نقلاً عن: بكار عبد الكريم، المرجع نفسه، ص ص 314-315.

مختلف الميادين. يمثل هذه الكيفيات الهادفة إلى إعادة إنتاج العدالة الاجتماعية بين مختلف الفئات الاجتماعية وتطافر الجهود الرامية في توجيه الثقافة وتوجيه العمل نحو نفس الهدف، يكون عند ذلك الأفراد والجماعات قد استوفوا شروط النهضة في إطار حضاري متوازن مع إطارهم الثقافي الخاص.¹¹

في الواقع، يذهب المفكر بن نبي إلى أن الحاجة من الناحية الاقتصادية نوعان: حاجة يغطيها المال (Solvable)، وحاجة تغطيها إرادة حضارية (Une volonté civilisée)، كما هو الحال بالنسبة للزكاة و الوقف على سبيل المثال، وهذا طبقا لما قرره العقيدة الإسلامية وفصلها الفقهاء المجتهدون في باب المعاملات، ومن ثم يتقرر على أساس الطريقة في التوزيع (تلبية الحاجة) كل أسلوب الاقتصاد، إما طبقا لطبيعة المال أو طبقا لما تمليه إرادة حضارية، وإذا تقرر القبول بالحل الأخير، نرى أن شروط الديناميكا الاقتصادية تتجلى في مسلمتين هما:

• لقمة العيش حق لكل فم: وهو اختيار يجب تدوينه في الدستور
(عقد أخلاقي-اجتماعي).

• العمل واجب على كل ساعد: بمثابة ضرورة تفرضها المسلمة الأولى، كشرط لاستمرار التفاعل وضمان جدلية على مستوى الإنتاج والاستهلاك.¹²

وهذا وعيا منه، بأن الانتقال من التنظير إلى التطبيق الواقعي، ليس عملية آلية سهلة، لهذا فهو يرى ضرورة استيعاب كافة الشروط النفسية و الفنية اللازمة، أي أن يكون المخطط واثقا من نفسه، واعيا بحجم التحديات الحقيقية من أجل "الإقلاع الاقتصادي"، والابتعاد تدريجيا عن دائرة التخلف الممثلة في ذلك الكساد للطاقات الفردية والجماعية، فالإرادة الفردية و الجماعية إذا تحركت فبإمكانها تحويل البلد إلى ورشة اجتماعية، تعلم

11 - للمزيد من التفاصيل حول الموضوع راجع: بن نبي مالك، المصدر نفسه، ص ص 109-113.

12 - بن نبي مالك، المسلم في عالم الاقتصاد، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، 1985، ص ص 81-82.

أصحابها في طريقها معنى الإرادة و الإمكان، أليس بالعزم و التوكل يحقق الأفراد والجماعات المعجزات ولو بعد حين! .

يمكن القول بأن الأنظمة بشعوبها العربية والإسلامية، خاصة "الثورية" منها، تستطيع في اختيارها للمسلمة الثانية أن تتجاوز الرأسمالية أو الاشتراكية، شريطة أن تنجز ثورتها الثقافية بتفعيل قيمها الأصيلة و المبدعة (الفكر المقاصدي) في المكان وفي الزمان، سواء على مستوى عالم أفكارها أو عالم أشخاصها . " .. وإذا ما كان لنا درس نستخلصه من تجربة الصين [على سبيل المثال لا الحصر]، فإنما هو أن المعارك الاقتصادية عندما تدور رحاها، فهي تدور حول قطب القيم الأخلاقية، وإن وسعنا من دائرة المصطلح قلنا: إنها تدور حول القيم الثقافية.¹³ وعليه فإن أي انحراف في الحقل السياسي، إذا ما استقصينا أسبابه الحقيقية (اللاشعورية) سنجد لها مستقرة في المجال الثقافي، وتحديدًا في البناء الأخلاقي كون أن المقاييس السياسية في حقيقتها، لا تخطئ أو تصيب إلا بسبب ارتباط الواقع السياسي بالمناخ الأخلاقي العام و الخاص بطبيعة الحال. و من ثم تصبح السياسة التي تقوم أساسًا على المطالبة بالحقوق، مع إهمالها في الوقت ذاته للواجبات، أي على حساب الواجبات، فإن هذه السياسة - حسب المفكر بن نبي - لا تعدو أن تكون قد قامت باختياراتها الظاهرة و الكامنة بين اتجاهين (مفهومين) أخلاقيين: الواجب و الحق.

لقد ظن الكثير من مثقفينا و صناع القرار السياسي في العالم العربي و الإسلامي (ولازالوا) نتيجة المفعول السحري (عقدة النقص) الذي لازالت تمارسه فيهم عبارة "دكتور" أو "خبير"، خاصة إذا كان صاحب هذا اللقب متخرج من جامعة غربية، أن الحل الموضوعي للمشاكل التي تتخبط فيها البلدان المتخلفة، هو منوط حتميًا باستعارة خدمات "استشارية" و "فنية"، يقدمها هؤلاء الأجانب المتخصصين الذين يمتلكون في زعمهم مفاتيح التقدم و الرقي الحضاري، و قد تشمل هذه القائمة الذهبية في ذهنية الكثيرين منهم: "خبراء الأمم المتحدة و البنك الدولي، ومؤسسات المساعدات وأساتذة الجامعات العريقة

¹³ - بن نبي مالك، المصدر نفسه، ص 85. للمزيد من التفاصيل حول موضوع الديناميكا الاقتصادية، راجع: ص ص 81-85.

والإطارات السامية في بلدان العالم الثالث. وقد توسعت العملية لتشمل موظفي الشركات والمصارف المتعددة الجنسيات أو العابرة للقارات والتي تعمل في معظم بلدان العالم الثالث، ونحن ندين لها بلغة خاصة كاملة، وبأطنان من التقارير والنشرات والكتيبات حول مختلف شؤون الإنماء : الإقتصاد ، الصحة ، التربية والثقافة والمالية والتكنولوجيا... إلخ، ويشكل مجموعها إيديولوجيا شاملة تتعاضد [هيمنتها] بإستمرار بفعل المؤتمرات واللقاءات الدولية الجديدة التي تكسب هذه "الإنتلجنسيا" نمط حياة مميز ولغة خاصة يزادان أناقة بإستمرار.¹⁴

لكن العديد من الدراسات النقدية المقارنة لمختلف هذه الاستشارات العلمية والتدخلات الفنية و الميدانية كنتيجة لمثل هذه الوصفات الأجنبية حتى وإن عرفت بعض النجاحات في بلدانها الأصلية ، فإن معظمها لم تحض في الواقع بذلك النجاح الذي عقده عليها "الزبائن" في العالم الثالث، لعل السبب الرئيسي في هذا التعثر أو الفشل، هو أن هؤلاء الخبراء الأجانب لم يتمكنوا نتيجة انتمائهم الثقافي و الحضاري، من استيعاب حقيقي للأبعاد الاقتصادية في معادلتها البشرية (الثقافية و الحضارية)، الخاصة بتلك "المجتمعات التقليدية الحديثة الاستقلال".¹⁵ ومن ثم إذا أردنا صياغة تعريف سليم للتنمية المستدامة، ذي بعد محلي، وطني أو حتى كوني، يستجيب لحاجات الأمم المختلفة في ظل احترام خصوصياتها الثقافية والحضارية، و يظل في الوقت ذاته صالحا للاستخدام رغم تطور تلك المطالب والحاجات الحيوية، يجب أن يشتمل على أقل تقدير على أربعة مفاهيم ضمنية هي:

¹⁴ - قرم جورج، التنمية المفقودة : دراسات في الأزمة الحضارية والتنمية العربية ، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت 1981، ص 116 . للإستزادة حول الموضوع، راجع : ص ص 116-149.

-Voir aussi l'excellente analyse critique de l'économiste algérien : Dahmani Mohamed, L'occidentalisation des pays du tiers monde : mythes et réalités, Eds. Economica, Paris, 1983. Pour l'Algérie, OPU., Alger, 1983, pp 159-180.

-Dahmani Mohamed, Les voies de développement dans l'impasse, Eds. OPU., Alger, 1987, pp 117-135.

- Latouche Serge, La planète des naufragés : Essai sur l'après développement, Eds. La découverte, Paris, 1991, pp 161-174.

¹⁵ - Rocher Guy, Op.Cit., pp 208-212.

أولاً: أن التنمية (وبغض النظر عن مدى استدامتها) هي معيارية بامتياز باعتبارها ترمي التقدم نحو تحقيق أهداف محددة في المكان والزمان.

ثانياً: أن هذه التنمية ذات أبعاد متعددة تتناول مختلف جوانب الحياة من مادية ومعنوية، أي لا يمكن حصر التنمية في الحدود الضيقة للنمو الاقتصادي، بل يجب تبني مفهوم موسع للتنمية يستوعب أبعاداً سيكولوجية و سوسيولوجية و سياسية و تكنولوجية وإيكولوجية، إلى جانب البعد الاقتصادي¹⁶.

ثالثاً: أن لها سماتها الثقافية و الحضارية الخاصة في كل بلد، كما أنها تضم مجموعة محددة من الأهداف المرحلية (التخطيطية الاستراتيجية) تكون قد صيغت في زمن محدد.

رابعاً: يجب أن تكون عملية مترابطة (تنمية متكاملة)، أي التوفيق بين الوسائل والأهداف في الوقت الواحد، آخذين بعين الاعتبار أن الإنسان هو ثمرة التنمية مثلما هو بذرتها، وهو غاية التنمية ووسيلتها، أي عمارة الأرض وتحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى¹⁷.

خاتمة

هكذا ينبغي أن تدرس مسألة الرخاء والعدالة الاجتماعية، أو مستوى الحياة (كرامة العيش) ونوعية البيئة (تنمية مستدامة) كأهداف تبادلية للتخطيط الاستراتيجي أو كأهداف متوازنة بين الحقوق والواجبات، ومن المنطق بمكان أن هذا التفاعل المعقد أو بكلمة أدق، هذا التحدي الإنساني للمجال الحيوي لن يرقى إلى ذلك المستوى الحضاري (تحقيق مبدأ الاستخلاف الإلهي) القائم على إشاعة العدل و الإحسان إلا إذا غير الإنسان من نظريته إلى

¹⁶ - العيسوي إبراهيم، التنمية في عالم متغير: دراسة في مفهوم التنمية ومؤشراتها، إشراف منتدى العالم الثالث/ مكتبة مصر 2020، دار الشروق، ط. الأولى، القاهرة، 2000، ص ص 94-99.

- باطويح محمد، التنمية المحلية المستدامة و المشروعات الصغيرة و المتوسطة، سلسلة دورية تعنى بقضايا التنمية في الدول العربية، العدد (141)، المعهد العربي للتخطيط، مركز المشروعات الصغيرة و المتوسطة، الكويت، 2018، ص ص 07-19.

¹⁷ - نصر محمد عارف، نظريات التنمية السياسية المعاصرة: دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية (6)، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، 1994، الرياض/ هيرندن-فرجينيا، ص ص 390-423.

- بكار عبد الكريم، المرجع نفسه، ص ص 239-282.

- Boukrouh Noureddine, L'islam sans l'islamisme : vie et pensée de Malek Bennabi, éd. SAMAR, 1^{ère} éd. Alger, 2006, pp 427- 466.

نفسه، أي إلا إذا تغير هو أولا وأخيرا مصداقا لقوله تعالى: ((..إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..))¹⁸ ، ولاشك أن هذه الظاهرة الثقافية والحضارية تحتاج إلى المزيد من الدراسات و التحاليل النقدية الأصيلة و المبدعة تتعدى التخصص الواحد، بغية استنباط معالم طريق جديد لتنمية حقيقية مستدامة.

قائمة المصادر و المراجع المعتمدة:

- 1 - للاستزادة حول الدور النشط للبروتستانتين، خاصة الكالفنيين منهم في تاريخ التصنيع و التنمية الاقتصادية في الغرب، راجع على سبيل المثال الدراسة الكلاسيكية الشهيرة للعلامة الألماني ماكس فيبر مع بعض أبرز النقاشات حول مدى تأثير العامل الديني في المجتمعات الغربية الحديثة و المعاصرة:
- Weber Max, L'Ethique prothestante et l'esprit du capitalisme, tra. J. Chavy, Eds. Plon, Paris, 1964. Cité in: Rocher Guy, Introduction à la sociologie générale : le changement sociale, coll. Points, Eds. HMH, Ltée, t.3., Paris, 1968, pp70- 86.
- 2- بن نبي مالك، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ص ص 70-81. انظر أيضا: بن نبي مالك، آفاق جزائرية: للحضارة، للثقافة، للمفاهيمية، ترجمة الطيب شريف، مكتبة النهضة، الجزائر، ب. ت، ص ص 103-108.
- Voir par exemple sur ce sujet, l'excellente approche de : Saint Marc Philippe, L'économie barbare, Eds. Frison-Roche, Paris, 1994. Pour l'Algérie, Eds. O.P.U., Alger, 1995, pp 453-478.
- 3- للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع:
- Cf. Domenach Jean-Marie, Le sauvage et l'ordinateur, Eds. du seuil, Paris, 1976, pp. 47-73.
- 4- للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع المعقد أنظر:
- Cf. Mintzberg Henry, Grandeur et décadence de la planification strategique, traduit de l'américain par Pierre Romelaer, Eds. Dunod, Paris, 1994, pp 231-328.
- 5- بن نبي مالك، شروط النهضة، سلسلة مشكلات الحضارة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، 1979، ص ص 75-77.

¹⁸ - سورة الرعد / 11.

- 6- بن نبي مالك، المصدر نفسه ، ص 78.
- 7- Ginsberg Eli, Pour une économie humaniste, traduit de l'américain par Guy Chartier, Coll : Tendances Actuelles (71), Eds. Les presses du Régionales Services Center, Manille, Philippines, 1979, pp 313-357.
- 8- بن نبي مالك: المصدر نفسه، ص 107. للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع: ص ص 106-108.
- 9- بن نبي مالك، المصدر نفسه، ص 110. انظر أيضا في نفس السياق المقاربة الإسلامية القيمة للباحث: بكار عبد الكريم، مدخل إلى التنمية المتكاملة: رؤية إسلامية، سلسلة المسلمون بين التحدي و المواجهة (4)، دار القلم، ط. الأولى، دمشق، 1999، ص ص 306-346.
- 10- انظر على سبيل المثال الدراسة الميدانية للخبير الأمريكي بول هاريسون ، العالم الثالث غدا ، ترجمة مصطفى عبد الرازق، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ، 1992 ، ص ص 147. نقلا عن: بكار عبد الكريم، المرجع نفسه، ص ص 314-315.
- 11 - للمزيد من التفاصيل حول الموضوع راجع: بن نبي مالك، المصدر نفسه، ص ص 109-113.
- 12 - بن نبي مالك، المسلم في عالم الاقتصاد ، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، 1985، ص ص 81-82.
- 13 - بن نبي مالك، المصدر نفسه، ص 85. للمزيد من التفاصيل حول موضوع الديناميكا الاقتصادية راجع: ص ص 81-85.
- 14 قرم جورج، التنمية المفقودة : دراسات في الأزمة الحضارية والتنمية العربية ، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت 1981، ص 116 . للإستزادة حول الموضوع، راجع : ص ص 116-149.
- Voir aussi l'excellente analyse critique de l'économiste algérien : Dahmani Mohamed, L'occidentalisation des pays du tiers monde : mythes et réalités, Eds. Economica, Paris, 1983. Pour l'Algerie, OPU., Alger, 1983, pp 159-180.
- Dahmani Mohamed, Les voies de développement dans l'impasse, Eds. OPU., Alger, 1987, pp 117-135.
- Latouche Serge, La planète des naufragés : Essai sur l'après développement, Eds. La découverte, Paris, 1991, pp 161-174.
- 15- Rocher Guy, Op.Cit., pp 208-212.
- 16- العيسوي إبراهيم، التنمية في عالم متغير: دراسة في مفهوم التنمية ومؤشراتها، إشراف منتدى العالم الثالث/ مكتبة مصر 2020، دار الشروق، ط. الأولى، القاهرة، 2000، ص ص 94-99.
- باطويح محمد، التنمية المحلية المستدامة و المشروعات الصغيرة و المتوسطة، سلسلة دورية تعنى بقضايا التنمية في الدول العربية، العدد (141)، المعهد العربي للتخطيط، مركز المشروعات الصغيرة و المتوسطة، الكويت، 2018، ص ص 07-19.

- 17- نصر محمد عارف، نظريات التنمية السياسية المعاصرة: دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية (6)، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، 1994، الرياض/ هيرندن-فرجينيا، ص ص 390-423.
- بكار عبد الكريم، المرجع نفسه، ص ص 239-282.
- Boukrouh Nouredine, L'islam sans l'islamisme : vie et pensée de Malek Bennabi, éd. SAMAR, 1^{ère} éd. Alger, 2006, pp 427- 466.
- 18- سورة الرعد / 11.